

مقاهي دمشق وأصحابها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

تأليف: بريجيت مارينو^(١)

ترجمة: محمد وليد حافظ

رغم المناقشات الحامية التي أثارها دخول القهوة إلى سورية في القرن السادس عشر فإنها، وهي اليمنية الأصل، غدت نتاجاً منشراً في دمشق، حتى وإن منع تداولها، كما سنشير، مرات عديدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر^(٢). وظهرت مع انتشار هذا النتاج الجديد منشآت مخصصة لتناوله وهي المقاهي. وتسمح لنا روايات الرحالة الغربيين والوثائق القضائية المودعة في سجلات محاكم دمشق الشرعية^(٣)، بتحديد مواقع المقاهي في المدينة ووصفها من الداخل، وتمييز روادها، والتحقق من شخصيات أصحابها المستثمرين لها.

وكما تقدّم القهوة للضيف عندما يدخل بيتاً^(٤)، تقدّم إلى الزبون الذي يناقش بائعاً. وهذه العادة تستحق منا أن نقوم بجولة صغيرة على حوانيت السوق قبل أن ندخل المقاهي.

^(١) باحثة في المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، وقد نشرت دراسات باللغة الفرنسية حول حسي الميدان بدمشق في الفترة بين عامي ١٧٤٠ و ١٨٣٠، وهي موضوع أطروحتها التي نالت عليها درجة الدكتوراه في جامعة بروفانس في فرنسا، بإشراف الأستاذ الدكتور أندريه ريمون في منشورات المعهد الفرنسي بدمشق.

ويصف دي بلانش الذي دعاه صاحب حانوت غني الضيافة التي قدّمت إليه قائلاً: "لم ينسَ وهو يطلّنا على غناه أن يطلب، حسب العادات الشرقية، القهوة اليمنية (المخا) التي لا يمكن الاستغناء عنها والتي قدّمت لنا في فناجين نفيسة على أنية مرصعة بالذهب الدقيق"^(٤). وقد مورست هذه العادة أيضاً في "الدكاكين الصغيرة التي كانت تعرض حولها بطريقة مغرية أشياء للبيع كما يشير ربنسون"^(٥). وأمام هذه الدكاكين مصاطب مفروشة بسجاجيد ومساند لتكون مقاعد للمشتريين، وما إن يجلس المشتري حتى يبدأ البائع بملء غليون يقدمه للزبون مشيراً في الوقت نفسه إلى القهوجي الذي هو في الخدمة دائماً، أن يجلب فناجين من القهوة، ثم يتبادل الطرفان مجاملات لا معنى لها ولا هدف هاماً لها. وبعد هذه المقدمات الضرورية يبدأ في الكلام في أمور البيع والشراء. ويؤكد لورتي^(٦) إنه: "مع الوقت والصبر وكثير من فناجين القهوة وأيام كثيرة من النقاش يمكن الحصول على قطع جميلة من السجاجيد البهية ذات الألوان المنسجمة القادمة من فارس أو من جبال آسية الصغرى أو من كردستان".

وإذا كانت القهوة ترافق جولات الرحالة وشراءهم من الأسواق فإنها تتناول كذلك في منشآت خاصة تسمى المقاهي. وأشير إلى وجود ما يزيد على مئة من هذه المقاهي في دمشق خلال القرن التاسع عشر^(٧).

ولا نملك إلاّ معلومات قليلة عن مراحل انتشارها ولكننا نعرف تواريخ بناء بعضها.

وأقدم هذه المقاهي المذكورة في المراجع التي رجعنا إليها هو المقهى الذي بناه مراد باشا ضمن وقفه عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٥م، قرب المسجد الأموي^(٨). وتدّل وثيقة تحمل تاريخ العام التالي ١٠٠٤هـ/١٥٩٦م، على أن والي دمشق سنان باشا أوقف ثلاث مقاهٍ على منشآت دينية تقع اثنتان منها في حي العمارة وحي باب المصلّى، والثالثة في قرية جنوب دمشق^(٩).

ويعرف بناء تاريخ بعض المقاهي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فقد بنى دفتر دار دمشق (مدير المالية) فتحي أفندي الفلاقنسي مقهى في حي الميدان قبل إعدامه عام ١١٥٩هـ/١٧٤٦م^(١٠)، كما بنى مقهى آخر في الحي نفسه عام ١١٦٣هـ/١٧٤٩م، تعود ملكيته إلى أسرة الموصلية. وفي عام ١١٦٩هـ/١٧٥٦م، بُنيت ثلاثة مقاهٍ جديدة في أحياء الشاغور وباب سريجة وباب المصلّى^(١١). ويشار ما بين عامي ١٨٢٧-١٨٣٠م إلى مقهيين آخرين أحدهما وقف لمتنّفذ عسكري هو حسن تركمان كتحدا، ويقع في زقاق الوسطاني، والثاني في زقاق بادر وكلاهما في حي الميدان. وكان مقهى العسرونية قد بني في مطلع سبعينيات القرن التاسع عشر^(١٢).

مواقع المقاهي:

إنّ مقاهي دمشق، وخصوصاً تلك التي تقع على ضفاف بردى، هي المظهر الذي كان يجتذب أنظار الرحالة الغربيين أكثر من غيرها من مظاهر المدينة.

المقاهي الكبيرة القائمة على ضفاف بردى:

يلاحظ أديسون^(١٣) أنّ هذه المدينة شهيرة بكثرة مقاهيها وأناقته، وأنها من هذه الناحية، هي باريس الشرق بالتأكيد. ويحدّد وجود كثير من هذه المنشآت الكبيرة من هذا الأنموذج في أماكن مختلفة من المدينة. ولكن الأكثر ارتياداً من بينها هي تلك التي تقع على ضفاف بردى، والتي هي حقاً ممتعة إذا قورنت بما يمكن أن يوجد في أماكن أخرى من الشرق.

ونجد مقارنة أخرى بين دمشق وباريس لدى لارومي^(١٤)، يقول: "تحت أشجار الدلب المزروعة على شكل مربعات تتوسط كل واحد منها شجرة خامسة تقع مقاهٍ يمكن مقارنتها بجواسقها الموسيقية وصفوف أنوارها بما يوجد في حي الشانزليزيه البعيد.

وتبعاً لرينو^(١٥) فإنه "من المؤلف أن تُوجد قرب أحد مجاري الماء التي اتخذ المدينة المقاهي أشبه بخلوات، وبعض هذه الخلوات أشبه بحدائق صغيرة تمدّ عريشة ضخمة فوقها سقفاً من الخضرة مدعوماً بداليتين متشابكتين شبيهتين بعمود معقوف. وتحيط بالنهر الذي يحاذيها أشجار الجنبية وأدغال من الآس وأشجار الصفصاف والهور القزمية، وأعدّ جوسق من الساقية يسرح البصر منه في تعرجات النهر وسط البيوت والحدائق، وغالباً ما يهدد الخريز البعيد لشلال صغير أحلام المدخنين".

ويشير ميشو وبوجولا^(١٦) إلى أن "المقاهي الأكثر ارتياداً والأكثر إشراقاً هي مقهى الورود ومقهى النهر ومقهى باب السلام. وهذا الأخير تحيط به ثلاث أسواق وتطلّله أشجار صفصاف كبيرة، وهو مصدر بهجة لأهل دمشق، وفيه يجتمع كل يوم أكثر من مئتي إنساناً يأتون ليدخنوا النرجيل ويشربوا الشراب المحلى والمعتّر ويلعبوا الشطرنج على مصاطب أو مقاعد مرتفعة، وعلى خريز الماء وفي ظلّ أشجار الصفصاف أو ظلّ البسط المرتفعة".

وذكر لاروتي حاجي^(١٧) هذه المقاهي الثلاثة، وأطنب في ذكر الخضرة في مقهى باب السلام وأشجاره: "إنه مظلل بأشجار الجميز (توت فرعون) والهور والصفصاف والذلب المختلطة بشجيرات الورد وأصص الزهور".

ويصف فيري مورنر^(١٨) بكثير من الظرف مقهى يرتاده الناس بكثرة قرب باب السلام، ويزعم أن ارتياد هذا المقهى خطير جداً لمن لا يحسن السباحة. ففي حين يزمر النهر حولك وتحثك كشلال، فإن الألواح التي تمشي عليها أو تجلس فوقها ليست متينة.

وذكر مسافرون آخرون كذلك هذه المقاهي التي تتوضع على ضفاف بردى بكلمات أقل إثارة للشعور. وتبعاً لرينسون^(١٩)، فإن "المقاهي في المدينة الشرقية تعدّ من المنشآت التي تلفت النظر أكثر من غيرها. وهي في دمشق كثيرة وأنيقة، وأغلبها على

هيئة جواسق(...) وهي عموماً تقع على ضفة ساقية تطلّ على شلال جميل ورياض وحدائق على الضفة المقابلة".

ويشير ويلسون^(٢٠) إلى مقهى يقع في جزيرة صغيرة محاطة بالنهر. ويذكر بورتو^(٢١) مقهى كبيراً يقع قرب باب الفرج تشرف أرسفته على النهر، وتمتدّ العين منه في منظر جميل حتى الجدار الشمالي للقلعة.

ويعيد لامارتين إلى الذهن^(٢٢) "المقاهي المبنية على ضفاف السواقي التي تجتاز المدينة". ويلاحظ هوارت^(٢٣) مقهى على ضفة النهر محاطاً بأشجار كثيفة.

إن أوصاف الرحالة الغربيين هذه في القرن التاسع عشر تظهر أن مجاري الماء كانت تؤلف عنصراً هاماً في توضع مقاهي دمشق. ويشير إلى هذا التقليد أيضاً بوكوك^(٢٤) وهو رحالة من القرن الثامن عشر، فهو يلاحظ في صدد حديثه عن أحد هذه المقاهي الواقع على ضفة بردى قرب جزيرة مزروعة بالأشجار، أن المكان مجهّز بطريقة مدهشة؛ ويُعدّ من أكثر الأماكن متعة، وسط مدينة كبيرة. ويذكر موندل^(٢٥) في القرن السابع عشر، مقهى يتسع لأربعمئة إلى خمسمئة شخص، وكان قسمه الصيفي واقعاً على جزيرة صغيرة مظلمة وسط بردى، ويحيط به تيار مائي عظيم. ويورد رحالة آخر سبق موندل هو تيفينو^(٢٦)، وشهادته مماثلة له، إذ يتحدث عن المقهى القريب من باب السراي قرب جسر على النهر محاذية بنهر من جانب وتمتدّ الأشجار على الجانب الآخر، وفي ظلّها يستمتع أولئك الذين يجلسون على المصاطب بالانتعاش وبمنظر النهر الجاري أمامهم. ومقهى النهرين جميل وكبير، إذ إن نهرين يمرّان ويشكّان عند نهاية صالة كبيرة مسقوفة جزيرة صغيرة ممتلئة بشجيرات الورد ونباتات أخرى، تمتع بخضرتها وتتنوع ألوانها ورائحة زهورها أكثر من حاسة في آن واحد، وتضفي مزيداً من الرضا على موقع هو في الأصل ممتاز.

وإذا كانت المقاهي مصدراً للسرور لعموم الناس، فإن المياه تمثل في نظر الطبيب لورتي القادم من ليون^(٢٧) تهديداً لصحة الناس الذين يقضون وقتاً طويلاً قربها، فهو يقول: "إن في كثير من أحياء المدينة حدائق عامة وسطها مقاهٍ تضاء إضاءة مبهرة كل مساء، وهي مظلمة بأشجار كبيرة تخترقها سواقٍ صافية؛ ولكن مهما بدت للرحالة الأوروبي ممتعة فإنه لا يجب أن يقيم فيها، لأي سبب، كما يفعل كثير من الأجانب، لأنها تسبب برطوبتها الحمى، وهي غير صحية، ولا يجوز مطلقاً البقاء فيها مدة طويلة في الليل، والأهم من ذلك عدم النوم فيها".

وبالإضافة إلى ما سبق كانت المياه تسبب كوارث حقيقية. ففي عام ١٠٩٨هـ/١٦٨٦-١٦٨٧م، مثلاً حدثت فيضانات قوية في دمشق جرفت مقهى المقصف، وهو أحد أشهر مقاهي النزاهات في المدينة^(٢٨). وتضرر كذلك مقهى المناخية الواقع في شمال القلعة في الخامس من محرم ١١٦٠هـ/أواسط كانون الأول ١٧٤٦م، بفيضان ارتفعت خلاله المياه إلى مستوى حافة النهر^(٢٩).

وكانت مقاهي دمشق تقدم متعة الماء لروادها حتى وإن لم تكن على ضفاف النهر، وذلك في هيئة أحواض داخلها ويصفها رينو^(٣٠)، كأنها "صالونات مبلمطة عريضة مزينة بحوض رخامي كبير". وهذا ما يلاحظه تيفينو^(٣١) في مقهى السنانية "المسمى بالمقهى الكبير لامتداده الطويل، والذي يخلب الأبواب بينابيعه المنبتقة التي ترى في أحواض كبيرة". وكانت هذه التجهيزات تساهم أحياناً كما يشير بوكوك^(٣٢) في إعادة إيجاد إطار ممتع لرواد تلك المنشآت.

مقاهٍ وحمامات وحلاقون ومساجد في المدينة:

ويذكر بعض الرحالة، مثل بورتر^(٣٣) ولامارتين^(٣٤) ولالمان^(٣٥)، بإيجاز وجود مقاهٍ في قلب المدينة. وإذا كانت تلميحاتهم تعطي قليلاً جداً من التفاصيل عن هذا النمط من المنشآت، فإن وجود وثائق المحاكم الشرعية وصكوك التراكات والشراء والاستئجار

المتعلقة بالمقاهي أو بمحتوياتها تزودنا بالمقابل بمعلومات أكثر دقة. إن حوالي ثلاثين مقهى منها يقع داخل النسيج العمراني وكان ثلثها وقفاً، كما تدل وثائق المحاكم الشرعية، إضافة للمعلومات المعروفة سابقاً.

كانت هذه المقاهي عموماً أقل اتساعاً من تلك التي وصفها الرحالة، والواقع أنها كانت -كما في القاهرة-^(٣٦) حويلة تجهيز حوانيت، وتوسعها طفيف غالباً. من ذلك ذكر مقهى في عام ١١٢٤هـ/١٧٤١م^(٣٧)، ونشهد أيضاً تجهيز مقهى من هذا النوع في حي الميدان من قبل عضوين من أسرة الموصلي يمتلكان حانوتين على الجانب الشرقي للشارع المركزي، فقد سمح في شهر محرم ١١٦٣هـ/١٧٤٩م لمستأجر بتحويلهما إلى مقهى.

وتشير وثائق المحاكم الشرعية إلى نوعين من المنشآت: المقاهي (قهوة خانة)، والحوانيت المعدة لتحضير البن وبيعه.

والأوصاف المجملّة المتاحة لنا تقتصر على بضع كلمات تشير إلى العناصر نفسها في الأنموذجين، وبهذا فمن الصعب التمييز بين الحانوت والقهوة خانة. وهذا التمييز أقل وضوحاً كذلك في نص الوثيقة نفسها لأن المصطلحين يستعملان أحياناً لتعيين المنشأة نفسها^(٣٨). ولكن يحدث أحياناً أن القهوة خانة والحانوت متلاصقان كما لو أن هناك تكاملاً بين هذين النموذجين^(٣٩).

وإذا كانت هذه الوثائق تمثّلنا بقليل من المعلومات عن عمارة هذه المنشآت، فإنها تزودنا بالمقابل بما هو أكثر بقليل من التفاصيل المتعلقة بالجوار. إن عدداً لا بأس به منها يقع قرب مساجد^(٤٠) وحمامات^(٤١) أو محلات الحلاقة^(٤٢)، وتساهم هكذا في تجميع الألفة الذكورية في مركز المدينة. وتبعاً للاروتّي حاجي^(٤٣)، فإن "ما يميّز الشرق أفضل من غيره هو المقهى ودكان الحلاقة"، وهذا التكامل بين هذه الأماكن العامّة المختلفة يمكن أن يؤدي إلى تشابك الوظائف، كما يتبيّن من هذه الملاحظة التي لاحظها

ترويتنيون^(٤٤): "لا يندر أن تجد كرسي في زاوية ما زبوناً مقوّس الظهر، مادّاً رأسه إلى الحلاق لأن القهوجي التركي يزواج بطيبة خاطر بين مهنة الحلاق ومهنة القهوجي". ومن المعروف أن زين الحمامات يتناولون القهوة بعد الحَمَام في صالة خلع الملابس الاستراحة (البرّاني)^(٤٥). وكذلك إن كان يشار أحياناً إلى أن القهوة مجهّزة داخل الحَمَام ويقدمها موظف خاص^(٤٦)، فإنه يمكن تصوّر بعض الحالات التي يمكن أن يكون فيها تكامل بين حَمَام ومقهى مجاور.

الأثاث والأدوات:

نجد فيما كتبه ميشو وبوجولا^(٤٧) وصفاً لما في داخل المقاهي: "صالات واسعة مبلّطة بالحجر الأبيض أو الرخام، عقود قبابها مدعومة بالأعمدة، وأرائك دائرية موضوعة بين الأعمدة، وأحواض من الماء محاطة بالنراجيل على شكل تاج، وكوة واسعة غير نافذة يحضر فيها الشراب العربي اللذيذ، ومصاطب مغطاة بالحصر أو السجاجيد، وهكذا هو الأثاث، وكذلك داخل مقهى بدمشق".

ويمرّ على ذكر هذه الأشياء لاروتي حاجي^(٤٨) قائلاً: إن الجسم الأساسي للمنشأة يتكوّن من صالات واسعة ببلاط رخامي مع عقد مدعوم بالأعمدة التي تصطف بينها الأرائك، وتحيط المصاطب بجدران الصالات، وهي غالباً مغطاة بالسجاد الأنيق، أو بحصر بسيطة، والنراجيل المتوضعة على شكل تيجان حول أحواض مملوءة بالماء في خدمة المدخنين دوماً".

يلاحظ روبنسون من جهته^(٤٩) أن "أريكة واحدة نصبت على امتداد الحائط الداخلي وربّبت حولها مساند يتكى عليها الأشخاص الذين يرتادونها".

ويشير لورتي أخيراً^(٥٠) إلى أن "الحدائق مزوّدة بمصاطب تستند على أوتاد ترتفع مترين عن الأرض، وعليها يتمدّد الدمشقيون مسترخين للتدخين واحتساء القهوة".

وترشدنا حوالي خمس عشرة وثيقة شراء تخصّ التجهيزات المادية لهذه المنشآت المؤسّس أغلبها في بداية القرن التاسع عشر إلى الأثاث والأدوات التي يمكن أن توجد في المقاهي^(٥١).

وتتألف مفروشات المقاهي أحياناً من أنواع مختلفة من البُسُط والسجاجيد (بساط، حصيرة، لبّاد، سجادة، طنفسة)، ولكن هذه الكلمات لم تذكر إلا في نصف الحالات، ويقتصر عددها على ثلاثة أو أربعة في كل منشأة، أمّا الكراسي أو المقاعد التي لا مسند لها، فهي خلافاً لذلك مذكورة في كل الحالات. ويمكن أن يدلّ عددها على حجم المنشأة التي كانت فيها. وبعضها مثل مقاهي دار السعادة والدرويشية وقنوات كان يحتوي على مئة منها تقريباً.

وبالإضافة إلى المصاطب المستديرة الملصقة بالجدران الداخلية أو الخارجية للمقاهي، والمذكورة في الوصف العام للبناء وليس في قائمة الأثاث، هناك في بعض المنشآت أرائك (ديوان) وسط الصالة، وهذه هي الحال في مقاهي تحت القلعة والدرويشية وخان السلطان، وصناديق من الخشب لا يعرف محتواها، تكمل عموماً أثاث هذه المقاهي، التي تثار بقناديل زيتية معلقة في السقف.

وبين الأدوات تُذكر النراجيل أكثر من غيرها في بند الكراسي نفسه، ويمكن أن تكون دليلاً على أهمية المنشأة، ويحتوي كل من مقهى الدرويشية وقنوات ودار السعادة على مئة كرسي وعشرين نرجيلة. وهذه المقاهي الثلاثة هي الأكثر أهمية بين المقاهي المذكورة في الوثائق القضائية التي يستند إليها بحثنا. ولا تظهر الفناجين إلا في نصف الحالات، ودلالاتها على أهمية المنشأة صعبة، ربما بسبب عادات تناول القهوة التي تقدّم بأداة مزوّدة بمقبض وفم للصبّ (إبريق-دولة) ويقدم الفنجان نفسه لأكثر من زبون، كما هي الحال اليوم. وأخيراً تستخدم موازين لوزن القهوة.

زُبن من نوعيات خاصة:

يُلاحظ من الرحالة الغربيين كما يشهد على ذلك لامارتين^(٥٢)، أن المقاهي تجمع وجهاء المدينة: "إنهم الأغوات الذين يرتدون عباءات قرمزية طويلة من الحرير مبطنة بفرو السمور، بسيوفهم وخناجرهم المرصعة بالجواهر المحزومة إلى أوساطهم، يتبعهم خمسة أو ستة من حشمهم، خدماً كانوا أو عبيداً، يمشون صامتين وراء السيد حاملين غليونيه ونرجليه. يذهبون ليمضوا جزءاً من النهار على الأرائك الخارجية للمقاهي المبنية على الجداول التي تخترق المدينة، وأشجار الدلب الجميلة تظللها. هناك يدخلون ويتسامرون مع أصدقائهم. وهذه هي الوسيلة الوحيدة للتواصل بين سكان دمشق بالإضافة إلى المساجد".

ويقدم دوفوغي^(٥٣) المقاهي الدمشقية "كصالات واسعة تحت قباب منخفضة مضاءة بقناديل مدخنة معلقة بفروع الأشجار، وعلى الأرض الممهدة بسط ومقاعد تنتظر عموم الناس، في حين أن الذين يترفعون عن الاختلاط بغيرهم وأصحاب المناصب يصعدون مصطبة دائرية تشرف على علو قدمين أو ثلاثة على الأرض". ولا يعلم إن كان هذا الوصف ينطبق على كل المقاهي؛ ولكن من المعلوم بالمقابل أن بعض المقاهي كانت ترتادها طبقات اجتماعية خاصة، تؤخذها رابطة عرقية أو مهنية واحدة^(٥٤).

وكما في القاهرة، حيث تبدو المقاهي من تسميتها على أنها أمكنة يطرقها المزاولون مهنة معينة: كبائعي الخيش (قهوة الخيشيين) وقهوة الخراطيين، والعليبيين^(٥٥)، فإن بعض منشآت دمشق تبدو من تسميتها مطروقة من أصحاب مهن معينة كاللحاميين والنجارين^(٥٦) والحمامين (مربي الحمام)^(٥٧) والقماحين^(٥٨). حتى إنه كان في استنبول مقهى معروف كمكان لقاء لشهود الزور، الذين يمكن شراء ذمتهم بمبلغ معين طوال النهار^(٥٩).

والمقاهي التي كان يرتادها العسكريون، وهي موجودة في حلب كذلك^(٦٠)، أماكن استراتيجية في الخصومات التي تتدلع بين القوى المتعادية، وهكذا ففي عام ١٠٨٣هـ/١٦٧٢-١٦٧٣م، انفجرت شجارات بين السكمانية والإنكشارية. وقد بدأت الشجارات في مقهى بحى السكرية^(٦١). وكذلك في عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥-١٨٠٦م، هاجم الإنكشارية المحليون (اليرلية) الإنكشارية التابعين للسلطان (القبوقول) بعدما حفروا ممراً يمتد من مقهى السكرية (ربما كان المقهى السابق نفسه)^(٦٢). وتورطت أحياناً مجموعات عرقية خاصة في الخصومات العسكرية. ففي شهر شوال ١١٦١هـ/ تشرين الأول ١٧٤٨م، شنت قوات الحاكم (القبوقول والدالاتية والتفنجكية) هجوماً على الدروز المجتمعين في مقهى بضاحية الميدان^(٦٣). وهاجمت، كذلك، في بداية شهر رمضان ١١٦٣هـ/ بداية آب ١٧٤٩م، قوات الحاكم (البغادة والموصلية والتفنجكية والقبوقول) مقاهي يرتادها الأكراد^(٦٤).

وهكذا فكل مقهى مجموعات خاصة من الزبن تضفي عليه سمات خاصة، إما مكان استراحة وإما مكان فجور.

وكان بعض الشخصيات يشرفون بوجودهم هذه المنشآت. ومن هذا القبيل ما يشير إليه البديري^(٦٥)، من أن الشيخ إبراهيم الجبائي شيخ الطريقة السعدية (توفي عام ١١٧٠هـ/١٧٥٦م)، برهن عن تواضع عظيم "لأنه كان يرتاد المقاهي". وتجعلنا هذه الملاحظة نخمن السمعة السيئة لبعض هذه المنشآت. إن تناول القهوة، بالإضافة إلى ما سبق، كان أحياناً موضوعاً لمعايير سياسية وتقويمات أخلاقية حتى منتصف القرن الثامن عشر. وفي هذا السياق يشير البديري^(٦٦) أن حاكم دمشق أسعد باشا العظم أمور في بداية رجب ١١٦٢هـ/ منتصف حزيران ١٧٤٩م، بأن تسحب من المقاهي والأسواق مادة ليست طبيعتها محددة ولكن يمكن أن تكون القهوة أو التبغ، وهدد بالموت من يتناولها لأنها تعد من أعظم المصائب؛ فالرجال والنساء وحتى الشباب يتناولونها. وسبق هذا الأمر أمر آخر في جمادى الأولى ١١٢٣هـ/حزيران- تموز

١٧١١م؛ بمنع التدخين في الأسواق^(٦٧). ولكن لم يكن لهذا الأمر فائدة على ما يبدو، فبعد بضعة أشهر، أي في ربيع الأول ١١٦٣هـ/ شباط ١٧٥٠م، وفي خلال جولة في جوار المرج والتكية السليمانية يلاحظ البديري^(٦٨) أن النساء الجالسات على ضفاف بردى يتناولن القهوة والتبغ كالرجال بل أكثر منهم! وكذلك في عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧-١٨٠٨م، يمنع حاكم دمشق كنج يوسف باشا السكّان من التدخين خارج البيوت ويمنع السهر في المقاهي ويمنع العروض الموسيقية فيها^(٦٩).

ويلحظ وجود المومسات في هذه المنشآت خلال أواسط القرن الثامن عشر^(٧٠). وفي الثالث من جمادى الأولى ١١٥٤هـ/ ١٧ تموز ١٧٤١م، يأتي عدد من سكّان حيّ الأخصاصية قرب مسجد الدرويشية إلى المحكمة ليشتكوا من أن المقهى الواقع في هذا الحيّ يرتاده الفسّاق والشاذون جنسياً؛ فيأمر الحاكم بإغلاقه حالاً^(٧١). يضاف إلى هذا أن بعض أهل دمشق لهم تقويمات سلبية على ارتياد بعض مقاهي مدينتهم. وفي مرجع من القرن التاسع عشر^(٧٢) يتطرق إلى موضوع الأخلاق، فيقدر أن الناس الذين لهم بعض الشهامة والعقل والدين لا يدخلون المقاهي، لأن هذه المؤسسات تؤوي مجموعات من الأسافل والأرذال.

تناول القهوة والتسلّيات:

إذا كان الرحالة الغربيون يجهلون القضايا الاجتماعية التي كانت تتبلور في مقاهي دمشق، فإنهم يعلموننا بالمقابل بالمنتجات التي كان تستهلك فيها والتسلّيات التي كانت تعرض فيها.

التدخين:

إن تناول التبغ في أدوات (شيبوك* وغلّيين ونراجيل وشوشة وجوزة) يلفت بشكل خاص اهتمام الرحالة. ملاحظات لارومي^(٧٣) بهذا الصدد موجزة غالباً: "يشمل الشيبوك ويدخن رواد المقهى على طاولات صغيرة محاطة بأرائك ثقيلة". ويلاحظ

فوغى^(٧٤) فقط أن "الجميع يمسون بصمت الغليون المؤلف من ساقين من القصب مطبقين على زاوية حادة تنغرسان في بيضة من المعدن أو الخشب، ويحتسون معه فناجين لا تحصى من القهوة". وينكب آخرون مثل رينو^(٧٥) على وصف مفصل جداً لهذه الأدوات: "يتربع العرب على الأرائك ممسكين بين السيقان المتصالبة هذه النرجلية الأنيقة التي تحمل الاسم الخاص (شوشة). لا تتألف الشوشة مطلقاً كالنرجلية الترككية من إناء زجاجي تتشابك حوله الطيات الطويلة للخرطوم المرن (البريش) كحلقات الحية؛ فإن بنية النرجلية اللولبية أنيقة وخفيفة تذكرنا بالخطوط الأصلية للفن الإسباني المغربي، وحل محل الحويلة الزجاجية جوزة هند يرتبط بها أنبوبان أحدهما عمودي والآخر محني؛ ينغمس الأنبوب العمودي مرفوعاً قرابة قدمين ونصف في مستودع الماء الخشبي المحفور، ويحمل كأساً من النحاس ذات فوهة واسعة حيث يحترق التباك. أما الأنبوب الآخر فهو قصبه مدهونة بالأحمر، وتستعمل لامتناس الدخان".

وكذلك فإن ملاحظات روبنسون^(٧٦) دقيقة: "إن الغليون المستخدم في دمشق، باستثناء الجوزة، نوع من النرجيلة لا يختلف عنها إلا بأنها يسهل حملها أكثر، ويتألف من قشرة جوز الهند التي تحبس الماء الحار، وتثبت بها قصبه مستقيمة طولها حوالي ثماني عشرة بوصة، يوضع فوقها التباك والفحم المستعمل، وهذه القصبه العمودية يمسكها المدخن، في حين أن الدخان المرطب بمروره عبر الماء يُستنشَق عن طريق خرطوم مشابه يمتد من الكرة إلى الفم، وتصنع القصبات والكأس نفسها أحياناً من الفضة، وتحفر حفراً".

الموسيقى والرقص:

تسلي الموسيقى والرقص والحكايات والدمى (دمى العرائس) بالإضافة إلى التباك رواد المقاهي. ويلاحظ لاروتي^(٧٧) أنه أحياناً، ورغم هذا الخمول الطويل، هناك تسلي

بمغنين متجولين وراقصات أو رواة^(٧٨)؛ تبعاً لرينو "وبينما يتتشق العرب عطر التبتاك عبر ماء الشوشة، يصغون إلى حكايات حكواتي ما بلغة مجازية (...) ويأتي الموسيقيون العرب من حين لآخر ليضفوا جواً ساحراً على استراحة المدخنين، وتلرة يتتشط المشهد برقصات متألفة تؤديها راقصات (عوالم) جميلات بملابس زاهية".

ويبدو آخرون غير متحمسين كثيراً للموسيقى الشرقية، فإن لاروميه^(٧٩) يشير إلى أنه "في المساء هناك موسيقى عربية تُعزف تحت أشجار الدلب ذات صرير وخنة"، ويبدو دوغوفي^(٨٠) أكثر قسوة في هذا الصدد: "يصغي عشاق الموسيقى إلى أوركسترا وحيدة النمط، مؤلفة من دربكة ونوع من الربابة وسلسلة من الحبال المشدودة على طاولة خشبية (قانون) تكرر إلى الأبد الأنشودة الرتيبة الوحيدة، ويرافق الموسيقى مغنون على هذا اللحن الأساسي الذي يمتلك الشرقيون سره، ويحكون على أنغام اللحن السوداني قصص الحب والمعارك ومآسي الصحراء".

الحكواتي:

يؤكد ميشو وبوجولا^(٨١) أهمية دور الحكواتي في مقاهي دمشق: "لا شك أنكم لم تسمعوا عن الحكواتية العرب، إنهم نوع من التروبادور المسلمين، شعراء السيرة الشعبية والذكريات العجيبة: "إنه في مقاهي دمشق يمكن أن يصادف الرواة الأكثر مهارة بين هؤلاء"، ويلاحظان كذلك "اندفاع المسلمين إلى الاستماع إلى هذا النوع من الحكايات".

أما لاروتي حاجي^(٨٢) فالحكواتي عنده "يبدو للمسلمين كما كان يبدو الشاعر الموسيقي في أوروبا، إنه شاعر ارتجالي يعلم السيرة الشعبية التي يروها ويرتبها على طريقته مازجاً إياها بالذكريات الأكثر إدهاشاً، ويعرف كيف يبهج، خلال ساعات، فضول العديد من المستمعين؛ إن الحكواتية في الشرق يصغي إليهم بانتباه ديني"^(٨٣).

كراكوز:

إذا كان دوفوغي^(٨٤) يكتفي بالإشارة إلى أن "عشاق العرض [المسرحي] يتابعون الحركات والأحداث البديئة التي يعقب عليها بدعابات خطيرة من قبل أكثر من كراكوز يتوضعون في زوايا القاعة"، ويفضّل تريتيون^(٨٥) هذا النمط من العروض أكثر قائلاً: "في المقاهي تقدّم تمثيلات كراكوز مساءً (...) وكراكوز نوع من المهرج التركي، شرّة سكّير لصّ، شبق وبذيء بشكل مربع، يقتحم أبواب الحريم، يعتدي على الشرطة والخصيان والأزواج، ويلهو لهواً صاخباً بألف بذاءة وقحة وبمآثر الحبّ والفسق، بطريقة مستحيلة السرد حتى باللاتينية. الديكور بسيط بساطة مدهشة ويذكر بمسرحيات الظلّ الصينية الصغيرة، فوسط ستار داكن مشدود إلى زاوية حائط، ترسم حلقة من القماش الأبيض، مضاءة بقنديل مدخن، وعلى القرص المضئ دمي ملوّنة شفافة كأضواء المصابيح السحرية تناور وتتقاذف ثم تختفي عنيقة مرتجة عابسة مضحكة. وكما عند غينبول^(٨٦)، فإن صوت مدير المسرح الذي يحركها من وراء جدية حيناً ومزمنة حيناً، ضاحكة أو متباكية يشرح مدير المسرح إيماءاتها". ويشير تروتيون^(٨٧) بالإضافة إلى ذلك إلى الخاصية المتقلّبة لهذا النشاط. فيلاحظ في الحقيقة أن: "راوي كراكوز فكك كوخه بسرعة وحزم دماه التي سيعرضها في مقهى آخر".

أصحاب مقاه على علاقة بالعسكر:

إن مكانة هذه المنشآت في الحياة الاقتصادية الدمشقية يمكن أن توطّر بالتحقّق بالتأكّد من الأشخاص الذين استثمروها^(٨٧). والمعلومات المودعة في وثائق التركات تسمح لنا أن نجد موقع هؤلاء المالكين في السلم الاجتماعي.

(٨٤) هوكرالوز البلاد الفرنجية.

وبين السجلات الخمسة للتركات التي جردت في نطاق هذه الدراسة ثلاثة صدرت عن القسم العربية^(٨٨)، واثنان من القسم العسكرية^(٨٩). وقد أودعت الثلاث عشرة وثيقة التي وجدت من تركات مالكي المقاهي في القسم العسكرية بين ١١٧٤-١١٨٤هـ/١٧٦٠-١٧٧١م، وست من هذه الوثائق تخص عسكريين وسبعة تخص مدنيين كان لهم صلات، يبقى تحديد طبيعتها، مع بعض العسكريين الذين ربما كانوا يستطيعون مثلاً تأمين حمايتهم^(٩٠).

تتدرج تركات أصحاب المقاهي التي درسناها بين ٣٨,٥ قرشاً و ٢١٧٥,٥ قرشاً بمعدل وسطي يبلغ ٩٨٢ قرشاً^(٩١). والقيمة الإجمالية يتضمن ثروات عقارية وديوناً هامة، فأصول تركة "سيد العارفين" تصل إلى ١٦٠٠,٧٥ قرشاً والقيمة الإجمالية لديونه ترتفع إلى ٥١٥٩,٥ قرشاً، وكانت هذه الشخصية تمتلك إلى جانب جزء من الدار ثلثي مقهى وحوشاً تقع كلها في حي الميدان، وخمسة عقارات أخرى موزعة على قرى دوما وجديدة والزبداني.

ويجب أن يُشار إلى تركة محمد آغا التي تتضمن بناء مقهى وتجهيزاته (كدك) في سوق الصوف، وكذلك إلى دار ومشغلين للنسيج في الحي نفسه وتصل قيمتها إلى ٢١٧٥,٥ قرشاً، وتركة الحاج أحمد بما فيها الديون تفوق ٢٠٠٠ قرشاً، ولكنها لا تتضمن عقارات، وكان هذا الشخص على علاقة بمقهى يقع في سوق الدقاقين.

أما التركات الأربع التي أصولها بين ١٠٠٠-١٥٠٠ قرشاً، فتتضمن قليلاً من الأموال الثابتة باستثناء تركة أحمد بشه الذي كان يمتلك نصف تجهيزات مقهى يقع في حي العمارة، وكذلك حانوتاً وثلثي دارين تقع جميعها في الحي نفسه، وداراً داخل القلعة، وداراً وأراضي ومزروعات في قرية حريستا.

والتركتان المحصورتان بين ٦٠٠-٧٠٠ قرشاً، هما لسيدين (من سلالة النبي) ولكل منهما خصوصيته؛ فالأولى التي للسيد المصطفى بن السيد أحمد العجلاني ناقصة؛

ومع ذلك تتضمن كثيراً من الثروات الواقعة في حي الميدان: مقهى وحوشين وحنوتين ودارين وبعض أشجار الفواكه. وخصوصية التركة الثانية التي للسيد أحمد بن يوسف بشه يكمن في أنها تتألف بكاملها تقريباً من بيع أموال ثابتة قيمتها مثبتة، وهذه الحالة نادرة في هذا النوع من الوثائق، وهي سبعة حوانيت وحوش ومصبنة تقع في باب المصلّى، وكان المرحوم يملك حصصاً منها.

ويملك خليل بشه الذي قائمة تركته منخفضة نسبياً (١١٧ قرشاً) داراً في حي باب السريجة، وكان مساهماً في نشاطات اقتصادية مختلفة كلها في حي الميدان، حيث كان يملك مقهى وفرناً وثلاثة حوانيت.

وتركة أحمد بشه، رغم أنها أعلى من سابقتها (٣٤٢,٧٥ قرشاً)، تتضمن أموالاً ثابتة أقل؛ فبغض النظر عن بناء مقهى قنوات وتجهيزاته، فإن هذه الشخصية لم تكن تملك إلا عمارة مسكن في الحي نفسه.

وأخيراً، فإن الشخصين اللذين ثروتهما أقل أهمية، وهما محمد بشه والحاج درويش لم يكن كل منهما يملك إلا جزءاً من تجهيزات مقهى: الأول في الصالحية، والآخر في المناخلية، وهذان الشخصان يمكن اعتبارهما ممثلين للمالكين الأقل حظاً، وهذا غريب إلى حد ما في حالة الحاج درويش الذي يمكن متابعة مسيرته عبر كثير من الوثائق.

الحاج درويش:

في ١٩ جمادى الثانية عام ١١٩٥هـ/ ٩ تموز ١٧٤٦م، يشتري الحاج درويش لحساب ابنه عبد الرزاق الذي ما زال قاصراً نصف تجهيزات مقهى باب جيرون، ويستأجر في اليوم نفسه، وينقود ابنه كذلك بصفته وصياً عليه، نصف المقهى. وبعد ثلاث سنوات، أي في ٨ من ذي الحجة عام ١١٦٢هـ/ ١٩ تشرين الثاني ١٧٤٩م، يستأجر عبد الرزاق الذي أصبح بالغاً المقهى بكامله، وكذلك الموقع الذي كان يقابله والمعين باسم "مصيف"، وربما كان عناء بناء ملحقات بالمقهى يستخدم صيفاً. وبعد عام ونصف، أي في ١٥ جمادى الثانية عام ١١٦٤هـ/ ١١ أيار ١٧٥١م، يستأجر الحاج درويش

أحد عشر حانوتاً معدةً لتحضير القهوة وبيعها، تلاصق الجامع الأموي ومن أوقافه، وقد حُدّد عقد الإيجار هذا بعد عامين ابتداءً من ٢٥ ذي الحجة ١١٦٦هـ/ ٢٣ تشرين الأول عام ١٧٥٣م، لمدة ست سنوات. إن تركة الحاج درويش المحضرة في نهاية ربيع الثاني ١١٧٦هـ/ منتصف تشرين الأول ١٧٦٥م، يعلمنا كذلك أنه كان يملك أيضاً تجهيزات مقهى يقع قرب القلعة في حي المناخيلية.

ورغم كثرة التوظيفات المحققة في المقاهي، وخلال أعوام كثيرة، فإن قائمة مِيراث الحاج درويش خصوصاً منخفضة (٤٣,٥ قرشاً). وقبل أن نستنتج انخفاض مردود هذا النوع من النشاط، يمكن أن نفترض أن التركة التي نحن بصدها غير كاملة، ومهما يكن، فإن مسيرة الحاج درويش تؤلف مثلاً مهماً للخصوصية في مجال المقاهي الدمشقية، تلك الخصوصية التي ربما أعطت الحاج درويش لقبه: المَحْمَص.

استنتاج:

من مقهى صغير في الحي ترتاده جماهير صاخبة إلى منشآت كبيرة على نهر بودي، تستقبل وجهاء المدينة، تتميز مقاهي دمشق إذن بتنوعها.

ورغم القيم المختلفة لتركاتهم، فإن أصحاب المقاهي في دمشق يؤلفون طبقة خاصة إذا قُيِّموا حسب الإجراءات القضائية السارية حسب القسمة العسكرية، فهم إما أنهم عسكريون أو أن لهم صلات بهم.

ويتجلى دور العسكريين في دمشق في مجال القهوة في صُعد مختلفة، فكثير من الوثائق يشير إلى مساهمتهم في تجارة هذا المنتج في القرنين السادس عشر والسابع عشر^(٩٢). وتؤلف الضرائب المرتفعة على القهوة والمقاهي في بداية القرن الثامن عشر جزءاً هاماً من عائدات الإنكشارية المحليين^(٩٣). وفي منتصف القرن الثامن عشر يستفيد الإنكشارية دائماً من جباية ضريبة هذا المنتج^(٩٤). وتلاحظ هذه الظاهرة نفسها في القاهرة، حيث تحتكر الفرقة العسكرية المسماة (وجاق المتفرقة)، طحن القهوة في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، وكذلك ضريبة المقاهي،

يحتكرها في هذا العصر الإنكشارية الذين يأذنون باستثمار المنشآت ويؤمنون لها الشرطة الداخلية^(٩٥).

إن هذا التأثير القوي للعسكريين على المقاهي الدمشقية يلحظ كذلك في وثائق الشراء المتعلقة بالمنشآت نفسها أو بتجهيزاتها التي تحتوي عليها، فالواقع أن عدداً كبيراً من الصفقات نفذها عسكريون أو أشخاص من أقربائهم، حتى زوجاتهم اللواتي كن بنات عسكريين، أو ينتدبن عسكرياً ممثلاً لهم. ورغم الحروب الكلامية التي كانت لا تزال تصاحب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تناول القهوة، فإن نساء وحتى قاصرين وبنات وغلماً كانوا يستثمرون أموالهم في مجال كان يمكن الحفاظ على الأخلاق الحسنة بعيداً عنها. ويمكن أن يقال هذا أيضاً عن الشخصيات التي كانت تمارس مسؤوليات إدارية^(٩٦) وعن المقربين من السلطة^(٩٧).

وأخيراً، وتبعاً لكارلبيه^(٩٨) فإن "ثلاث مدن أعطت لهذا المكان الجديد للألفة كل وزنها، مكة والقاهرة واستنبول" وتظهر أبحاثنا أن دمشق ربما تستحق أن تذكر بينها.

الحواشي

(١) في موضوع هذه الحرب الكلامية انظر (الأرناؤوط ١٩٩٢) و (Deguilhem ١٩٩٣) و (Pascual: مقالة قيد الظهور). وفيما يتعلق بمصر انظر (Raymond ١٩٩٥).

(٢) هذه السجلات محفوظة في دمشق، مركز الوثائق التاريخية السورية، ونشكر هنا السيدة دعد الحكيم مديرة المركز لما وفرته لنا من شروط جيدة للعمل، والسيد هاني جرجي الذي أفادنا في الاستدلال على مواقع هذه المقاهي في دمشق.

(٣) Lamartine, 1855, II, p. 5 ; Vogüé, 1922, p. 79-80.

(٤) Des Planches, 1900, p. 141.

(٥) Robinson, 1838, P. 297.

(٦) Lortet, 1884, p. 579.

(٧) Poujoulat, Michaud إلى وجود ١٢٢ مقهى عام ١٨٣٠، وحسب Laorty-Hadji وجد ١٥٠ تقريباً من هذه المنشآت، ويشير إلى أقل من ١١٠ في سبعينيات القرن التاسع عشر، انظر Poujoulat, Michaud ١٨٣٣-١٨٣٥، ج ١٧٨/٦ و Laorty-Hadji ١٨٤٥، ص ١٥٠ و (القساطلي ١٨٧٦، ص ١٠٩).

(٨) J.-P. Pascual 1983, p. 38.

(٩) الأرناؤوط، ١٩٩٢، ص ٣٢-٣٣.

(١٠) البديري، ١٩٥٩، ص ٨٠.

(١١) البديري، ١٩٥٩، ص ١٩٠.

- (١٢) القساطلي، ١٨٧٦، ص ١٠٩.
- (١٣) .Addison, 1838, p. 144
- (١٤) .Larroumet, 1898, P. 226
- (١٥) .Reynaud, 1853, p. 244-245
- (١٦) .Michaud et Poujoulat, 1833-1835, VI, p. 178
- (١٧) .Laorty-Hadji, 1854.,p. 151
- (١٨) .Vere Monro, 1835, p. 65
- (١٩) .Robinson, 1838, p. 299
- (٢٠) .Wilson, 1823, p. 449-450
- (٢١) .Porter, 1855, p.520
- (٢٢) .Lamartine, 1855-1856, II, p. 10
- (٢٣) .Huart, 1879, p. 6
- (٢٤) .Pococke, 1745, II, p. 122
- (٢٥) .Maundrell, 1810, p. 173
- (٢٦) .J.-G. de Maussion de Favières, 1971, p. 30
- (٢٧) .Lortet, 1884, p. 568
- (٢٨) .Laoust, 1952, p. 223
- (٢٩) البريدي، ١٩٥٩، ص ٨٦.

- (٣٠) Reynaud, 1853, p. 245
- (٣١) J.-G. de Maussion de Favières, 1971, p. 30
- (٣٢) Pococke, 1745, p. 122
- (٣٣) Porter, 1855, p. 30
- (٣٤) Lamartine, 1855-1856, II, p. 10
- (٣٥) Lallemand, 1896, p. 89
- (٣٦) M.Tuchscherer, 1992, p. 37-38
- (٣٧) A.-K. Rafiq, 1990, p. 183
- (٣٨) وهذا هو وضع المنشأة التي تحدثنا عنها قبل قليل في حي الميدان، وهو أيضاً وضع المنشآت الواقعة في "تحت القلعة" وقبيبات ودقاقين وسوق ساروجة.
- (٣٩) هناك مثالان لهذا التكامل بين القهوة خانة والحانوت، أحدهما في باب القلعة والآخر في سوق القاضي.
- (٤٠) مقهى باب جيرون، المعروف أكثر بمقهى النوفرة بسبب النبع الذي يزينه، يقع قرب المسجد الأموي، وهناك في سوق الصوف مقهى قرب مسجد سيدي هشام، وقرب مسجد درويش باشا مقاه كثيرة، وغرب القلعة مقهى ملاصق لمسجد يلبغا وآخر مقابله.
- (٤١) يقع مقهى باب جيرون، مقابل حمام الذهبية، وفي حي مسجد درويش باشا مقهى يلاصق حمام الملكة، وفي سوق ساروجة مقهى يلاصق حمام الجوزة.
- (٤٢) هناك محلات حلاقة مشار إليها قرب مقهى باب جيرون، ومقاه تقع قرب مسجد درويش باشا وحانوت واقع في قرب القلعة.

(٤٣) .Laorty-Hadji, 1854., p. 149

(٤٤) Trotignon, 1893, p. 227

(٤٥) نعيسة، ١٩٨٦، ج ١، ص ١٣١.

(٤٦) نعيسة، ١٩٨٦، ج ١، ص ١٢٦-١٢٨.

(٤٧) . Poujoulat, 1833-1835, VI, p. 177-178

(٤٨) .Laorty-Hadji, 1854, p. 150

(٤٩) .Robinson, 1838, p. 299

(٥٠) .Lortet, 1884, p. 568

(٥١) يُدَلّ عادة على هذه الأدوات بكلمة كَدَك (سوق الخراطيين، دار السعادة، درويشية، قبر عاتكة، سوق الرادية، الصالحية، خان السلطان)، وكلمتان: (قيمة) في (الدرويشية وباب السريجة) و (العدة) في (تحت القلعة)، أقل استعمالاً. إن كلمة (كَدَك) تضم أحياناً إلى إحدى الكلمتين (قيمة) أو (عدة) لتعيين هذه الأدوات (درويشية، سنانية)، ولكن على النقيض من ذلك، لا يقدّم أي من هذه الوثائق الكدك كحق في ممارسة أي نشاط خاص في مساحة معينة، وربما كان هذا المفهوم مدرجاً ضمناً في كلمة كدك التي تحدّد فقط بأنها المعادلة لكلمة عدة (العدة المعبر عنها بالكدك، سوق ساروجة).

(٥٢) .Lamartine, 1855-1856, p. 10

(٥٣) .Vogüé, 1922, p. 83

(٥٤) إن الانتماء إلى جيل معين يمكن كذلك أن يكون معياراً لتمييز، وهكذا ففي مقهى الموصل كان سلوك بعض شباب الحي يزعج المسنين، ولهذا قرّر

- هؤلاء (المسنون) بناء مقهى آخر بحيث كان يجتمع الكهول. انظر
(Raymond 1985، ص ٣٠١).
- (٥٥) M. Tuehscherer, 1992, p. 40.
- (٥٦) نعيسة، ١٩٨٦، ج ١، ص ٧١٦.
- (٥٧) القاسمي، ١٩٨٨، ج ٢، ص ٢٩٩.
- (٥٨) القساطلي، ١٨٧٦، ص ١٠٩.
- (٥٩) تقرير القنصل الإنكليزي Campbell المؤرخ عام ١٨٣٦، والمروى من
(Yahia ١٩٨٦، ص ٢٣٢).
- (٦٠) A. Raymond, 1989, II, p. 256.
- (٦١) H. Laoust, 1952, p. 217.
- (٦٢) العبد، ١٩٨٦، ص ١٢٥.
- (٦٣) البديري، ١٩٥٩، ص ١١٧.
- (٦٤) البديري، ١٩٥٩، ص ١٤٨. يشير البديري كذلك في شهر جمادى الأولى -
١١٦٨هـ/ بداية آذار ١٧٥٥م، إلى حادث آخر يتعلق بصاحب مقهى كردي قتلته
زوجته وبعض السفلة. انظر (البديري، ١٩٥٩، ص ١٨٤-١٨٦).
- (٦٥) البديري، ١٩٥٩، ص ١٩٢-١٩٣.
- (٦٦) البديري، ١٩٥٩، ص ١٣٠.
- (٦٧) ابن كنان، ١٩٩٤، ص ١٨٠.
- (٦٨) البديري، ١٩٥٩، ص ١٤٠.

- (٦٩) الشهابي، ١٩٣٣، ج ٢، ص ٥٢٤.
- (٧٠) البديري، ١٩٥٩، ص ١٢٧.
- (٧١) A.-K.Rafiq, 1990, p. 183
- (٧٢) القاسمي، ١٩٨٨، ج ٢، ص ٣٦٨.
- (٧٣) Larroumet, 1898, p. 235
- (٧٤) Vogüé, 1922, p. 83
- (٧٥) Reynaud, 1853, p. 245
- (٧٦) Robinson, 1838, p. 301
- (٧٧) Laorty-Hadji, 1854, p. 151
- (٧٨) Raynaud. 1853, p. 246, 247
- (٧٩) Larroumet, 1898, p. 235
- (٨٠) Vogüé, 1922, p. 83-84
- (٨١) Michaud et Poujoulat, 1833-1835, p. 179, 180
- (٨٢) Laorty-Hadji, 1854, p. 151
- (٨٣) Reynaud, 1853, p. 246
- (٨٤) Vogüé, 1922, p. 83
- (٨٥) Trotignon, 1893, p. 232, 233
- (٨٦) Trotignon, 1893, p. 234

(٨٧) هؤلاء الأشخاص الذين يسمون "أصحاب المقاهي" يساهمون بطرق مختلفة في هذه المنشآت، فبعضهم يملك منها الأدوات، وبعضهم يملك البناء؛ ولكن لا يعلم إذا كانوا يمارسون بأنفسهم أي نشاط داخل المنشأة.

(٨٨) "قسمة عربية" تعني القسم من المحكمة الذي يهتم بالقضايا الشخصية للمتوفين من المدنيين، انظر (Rafiq ١٩٧٣، ص ٢٢٢).

(٨٩) "قسمة عسكرية" تعني القسم من المحكمة الذي يهتم بقضايا العسكر: الخطبة والزواج والامتلاك والإعارة والميراث. انظر (Rafiq ١٩٧٣، ص ٢٢١).

(٩٠) فيما يتعلق بهذه الظاهرة في القاهرة انظر (Raymond ١٩٧٣، ج ٢، ص ٦٨٨-٦٩٢).

(٩١) إن متوسط التراكات المودعة في سجلي القسمة العسكرية المدروسين رقم ١٦٢٠ و ١٧٩ هو ١٨٢٦ قرشاً، وهذا المتوسط محسوب اعتماداً على استطلاع أجري على ١٥٣ حالة.

(٩٢) الحمود، ١٩٨١، ص ١٨٩-١٩١.

(٩٣) K. Barbir, 1980, p. 183.

(٩٤) A.-K.Rafiq, 1981, p. 657.

(٩٥) A. Raymond, 1973, II, p. 644, 645.

(٩٦) اقتنى حسين أفندي محاسب الخزينة السورية (محاسبجي خزينة الشام) وابن مسؤول مالي (دفتر دار) بدمشق في ١٣ جمادى الأولى عام ١٢٤٥/ العاشر من تشرين الثاني ١٩٨٢م، محتويات مقهى يقع في خان السلطان.

(٩٧) أمينة خانم بنت سليمان باشا حاكم دمشق أسست في الوقف في جمادى الثانية ١١٧٧هـ/كانون الأول ١٧٦٣م، مقهى يقع في الدقاقين. ونفيسة خانم مولاة أسعد باشا حاكم دمشق السابق في الوقف في ٢٦ جمادى الثانية ١١٧٨هـ/٢١ كانون الأول ١٧٦٤م، مقهى يقع في سوق ساروجة مع التجهيزات التي فيه.

(٩٨) O. Carlier, 1990, p. 977.

BIBLIOGRAPHIE

Voyageurs occidentaux

ADDISON Ch.,

1838 *Damascus and Palmyre. A Journey to the East*, Londres.

DES PLANCHES D.,

1900 *Orient. Excursions, descriptions récits, études*, Marseille.

DE VOGUE E.-M.,

1922 *Syrie, Palestine, Mont Athos. Voyage aux pays du passé*, Paris.

HUART Cl.,

1879 *Notes prises pendant un voyage en Syrie*, Paris.

ALLEMAND Ch.,

1896 *D'Alger à Constantinople. Jérusalem-Damas*, Paris.

LAMARTINE A. de,

1855-1856 *Voyage en Orient, Paris*.

LAORTY-HADJI R. P.,

1854 *La Syrie, la Palestine et la Judée. Pèlerinage à Jerusalem et aux Lieux Saints*, Paris.

LARROUMET G.,

1898 *Vers Athènes et Jerusalem. Journal de voyage en Grèce et en Syrie*, Paris.

LORTET Dr.,

1884 *La Syrie d'aujourd'hui. Voyages dans la Phénicie, le Liban et la Judée (1875-1880)*, Paris.

MAUNDRELL,

1810 *A Journey from Aleppo to Jerusalem at Easter* 1697, Londres.

MICHAUD M. et POUJOULAT M.,

1833- 1835 *Correspondance d'Orient, 1830-1833*, Paris.

POCOCKE R.,

1745 *A Description of the East and some other Countries*, Londres.

PORTER J.-L.,

1855 *Five Years in Damascus*, Londres.